فوائد مستنبطة من سورة التكاثر

ناصحون

اشتمل كتاب الله تعالى على وعظ القلوب بتضمنه لحقائق الوجود والإخبار بالغيب القادم في الآخرة، وخاطَب القلوب بحديث يخاطب العقل بدقته وإحكامه، ويخاطب الوجدان بحقائقه وأسلوبه.. ومن تدبّر وجد.
وهذه السلسلة من المقالات توضح بعضا من هذه الحقيقة الكبيرة..

فوائد ودروس مستنبطة من سورة التكاثر، وما ورد في معناها

معنى أَلْهاكم

أولا: المعنى المستفاد من قوله ﴿أَلْهَاكُم﴾

الإلهاء: هو الصرف إلى اللهو من (لها) إذا غفل، وكل شيء شغلك عن شيء فقد ألهاك، وهو صرف الهم بما لا يحسن أن يصرف به من الإعراض عن الحق والانشغال بالمتع العاجلة عن الدار الباقية، والميل عن الجد الى الهزل. وبالجملة: فكل باطل شغل عن الخير وعما يعني فهو (لهو) ».(1)

وقوله «﴿أَلْهَاكُم﴾ أبلغ في الذم مما لو قال: (شغلكم) لعدم التلازم بين اللهو والاشتغال، ذلك أن الإنسان قد يشتغل بالشيء بجوارحه وقلبه غير لاهٍ به؛ بينما اللهو: ذهول وإعراض».(2)

الاقتران بين اللهو واللعب، ومعناه

ثانيا: قرن الله عز وجل في كتابه الكريم بين «اللهو واللعب»، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ (العنكبوت:64).

وقوله تعالى: ﴿ أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ (محمد:36).

وقوله تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ (الحديد:20).

وقوله تعالى: ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا﴾ (الأنعام:70).

وقوله تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إلا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ (الأنعام:32).

و قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ (الأعراف:51).

والعطف يقتضي المغايرة فما هو الفرق بين اللعب واللهو؟

ذكر أهل العلم فروقا في ذلك: فقال الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى: «اللهو للقلب واللعب للجوارح.(3)«

وقال بعضهم: اللهو: «صرف الهَمّ بما لا يحسن أن يصرف به، واللعب: طلب الفرح بما لا يحسن أن يطلب به.«

وقيل: «اللهو: الإعراض عن الحق, واللعب: الإقبال على الباطل.«

وقال العسكري: «الفرق بين اللهو واللعب: أنه لا لهو إلا لعب، وقد يكون لعب ليس بلهو, لأن اللعب يكون للتأديب... ولا يقال لذلك لهو, وإنما اللهو لعب لا يعقب نفعا, وسمي لهوا, لأنه يشغل عما يعني, من قولهم: ألهاني الشيء, أي شغلني, ومنه قوله تعالى: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾(4).

ومن تأمل هذه الأقوال تبين له مدى التقارب بين معنى اللهو واللعب، ولعل من أحسن الفروقات بينهما ما ذكره الحافظ شمس الدين ابن القيم رحمه الله من أن «اللهو للقلب، واللعب للجوارح»، قال: «ولهذا جمع بينهما»(5).

معنى التكاثر المذموم

ثالثا: التكاثر: التباهي بالكثرة من المال والجاه والولد وغير ذلك مما سيأتي تفصيله إن شاء الله تعالى، هو تفاعل من الكثرة.

وهو مأخوذ من مادة (ك ث ر) التي تدل على خلاف القلة.

والتكاثر يقع على أحد وجهين: فيحتمل أن يكون التكاثر بمعنى المفاعلة لأنه يتم بين اثنين، يقول كل واحد منهم لصاحبه ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالا﴾ (الكهف:34)، ويحتمل تكلف الكثرة وتطلبها، فإن الحريص مثلا يتكلف جميع عمره تكثير ماله(6).

دلالة الإطلاق وعدم تعيين مفردات التكاثر

رابعا: لم يعين ـ سبحانه وتعالى ـ المكاثر به؛ بل ترك ذكره لإرادة العموم في كل ما يكاثر العبد به غيره سوى طاعة الله عز وجل.

وترك الأمر على العموم والإطلاق أبلغ في الذم من تخصيصه، لأنه تذهب فيه الفكر كل مذهب، فيدخل فيه جميع ما يحتمله المقام؛ مما يتكاثر به المتكاثرون، ويفتخر به المفتخرون.

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى:

"التكاثر في كل شيء: فكل من شغله وألهاه التكاثر بأمر من الأمور عن الله والدار الآخرة فهو داخل في حكم هذه الآية.

فمن الناس من يلهيه التكاثر بالمال.

ومنهم من يلهيه التكاثر بالجاه أو بالعلم، فيجمعه تكاثراً أو تفاخراً، وهذا أسوأ حالاً عند الله ممن يكاثر بالمال والجاه؛ فإنه جعل أسباب الآخرة للدنيا، وصاحب المال والجاه استعمل أسباب الدنيا لها وكاثر بأسبابها". أ.هـ(7)

وسيأتي إن شاء الله تعالى بيان لأنواع كثيرة من التكاثر التي ظهرت في واقعنا المعاصر.

[للمزيد راجع :ألهاكم التكاثر .. الأموال والأولاد والرياسات]

وقوع الذم على التكاثر في الدنيا، لا في شأن الآخرة

خامسا: بما مضى يتبين أن الذم في الآية واقع على التكاثر في متاع الدنيا الزائل ولذّاتها الفانية.

اما التكاثر بأسباب السعادة الأخروية فهو مطلوب شرعا قال الله عز وجل: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ (المطففين:26.)

وعليه فالتكاثر من حيث تعلق الذم والحمد قسمان «محمود ومذموم»، فما كان في الآخرة فهو ممدوح إذا ابتغى به وجه الله تعالى، وما كان في الدنيا فهو مذموم ونهايته الى الخسران.

دلالة على البعث

سادسا: في سورة التكاثر دليل على البعث بعد الموت، وذلك من قوله تعالى: ﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ لأن الزائر لا يقيم وإنما يرجع إلى موطنه الأصلي النهائي، وذلك في اليوم الآخر: إما إلى الجنة وإما إلى النار.

نسأل الله عز وجل أن يجعل قرارنا في جنات النعيم.

إشارة لزيارة القبور، للتذكر

سابعا: في هذه السورة فضيلة لزيارة القبور وتذكر الموت والدار الآخرة والاستعداد له ما دام الإنسان حيا قبل أن يزورها ميتا، وأن هذا من الأسباب التي تتقي بها الدنيا والتكاثر بها.

خطورة التكاثر المذموم

ثامنا: تضمنت السورة بيان خطورة التكاثر في الدنيا وما يورث فيها من الشقاء والهَمّ والغَمّ، وفي الآخرة من الحسرة والندامة ورؤية النار، وذلك بالانشغال في الدنيا عن العمل الصالح بالمكاثرة ولو بالمعاصي والحرام.

مسؤولية المال حلالا، ووبالُه حراما

تاسعا: بينت السورة أن التكاثر والمنافسة في الدنيا هي من أهم الأسباب التي تجعل الإنسان لا يبالي من أين يكسب المال وفيما ينفقه..

فحسْبه أن يتمتع بهذا المال حلالا كان أم حراما، وينسى أن الله عز وجل سيسأله عن كل نعيم تنعم به في هذه الدنيا، لما قال سبحانه وتعالى ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ وقوله صلى الله عله وسلم: «لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن عمره فيما أفناه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه. وعن جسمه فيما أبلاه »(8)

فالمال والتكاثر به: إما حساب إن كان حلالا، وإما عذاب إن كان حراما.

....

هوامش:

1. انظر المفردات للراغب (مادة لهو) ص748.
2. تفسير القرطبي 6\414, الفوائد لابن القيم ص32.
3. الفوائد ص32.
4. الفروق اللغوية للعسكري ص210.
5. الفوائد ص32.
6. انظر التفسير الكبير32\75 والفوائد ص32.
7. عدة الصابرين ص172.
8. الترمذي 2417 وقال حسن صحيح.

ألهاكم التكاثر .. الأموال والأولاد والرياسات

أطلق تعالى التكاثر المذموم ولم يقيده.. وهو التكاثر في أمور الدنيا؛ ولذا فمن المفيد بيان بعض أنواعه على التفصيل لمعرفة بعض مرامي الآيات الكريمة والحذر مما حذرنا الله تعالى منه..

وهذا ما تتناوله هذه السلسلة لمقالات أربعة توضح هذا الشأن بعون الله تعالى..

مجالات مذمومة خاصة في زماننا

ذكر بعض الأنواع والمجالات التي يتكاثر فيها الناس ولا سيما في زماننا اليوم..

سبق في ـ **فوائد مستنبطة من سورة التكاثر** ـ بيان أن التكاثر في قوله تعالى: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ تفاعل من الكثرة، أي مكاثرة بعضكم لبعض، وهو أن يطلب الرجل أن يكون أكثر من غيره.

وقد أطلق الله سبحانه هذا التكاثر، ولم يعين في الآية ما يحصل التكاثر فيه، بل أعرض عن ذكره إرادةً لإطلاقه وعمومه؛ ليدخل تحت المتكاثَر به كل ما يكاثر به العبد غيره..

وأن كل ما سوى طاعة الله عز وجل، وما يعود عليه نفعه يوم معاده هو داخل في هذا التكاثر، سواء كان ذلك في مال أو جاه أو رئاسة أو نسوة أو علم وحديث؛ فإن التكاثر فيه منافسة في الخيرات وسابقة إليها، وهذا مرغَّب فيه؛ قال الله عز وجل عن نعيم الآخرة:﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾.(المطففين:26)(1)

وفي هذه السلسلة من المقالات سأذكر إن شاء الله تعالى بعض ما يتكاثربه الناس ـ وما أبرىء نفسي ـ ولا سيما في واقعنا المعاصر الذي لم يشهد تاريخ المسلمين تكاثرا مثله في كمه وكيفيته، حتى أصبح سمة بارزة لزماننا، ولم يسلم منه أحد، إلا من رحم الله عز وجل، وقليل ما هم.

ومن أبرز هذه الأشياء التي يتكاثر بها الناس اليوم حتى أشغلتهم عن الموت الذي سيفجؤهم بغتة، ويُزيرُهم المقابر، ويحول بينهم وبين ما كانوا يتكاثرون فيه:

أولا: التكاثر في الأموال نقدا وعينا

قال الله عز وجل: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ (الحديد:20.)

فمن أبرز ما يتكاثر فيه الناس في القديم والحديث إنما هو الأموال والأولاد والأنساب؛ حيث نجد التنافس المسعور على هذه الدنيا، وسعْي كل إنسان أن يكون أكثر مالا وخدما وأولادا؛ قال تعالى: ﴿فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾)الكهف:34(، وقال سبحانه: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ (سبأ:35.)

والمال قد يكون نقدا، وقد يكون عينا كالعقار والمساكن والأثاث والمراكب والمزارع، وإن المتأمل اليوم في واقعنا المعاصر ليرى هذا التنافس المحموم بشكل جليّ، عم الرجال والنساء والصغار والكبار..

وأصبحنا نسمع ونرى من لا يقنع برصيده الكبير من المال، بل يسعى جاهدا الى مضاعفته، ليكون أكثر من غيره، كما يسعى الى سكن وركب أرْفه من غيره، مع أنه قد يعيش في سكن واسع وله مركب حسن.

وقد بلغت حُمّى هذا التكاثر الى الرجل الفقير، فنراه يسعى لتحميل نفسه من القروض والدين ليكاثر غيره في مركب أو مسكن أو ملبس وقد يكون اقتراضه بالربا.

فما أخطر هذا البلاء الاجتماعي الذي أُصبنا به، وذلك بالتوسع في الدنيا والتكاثر فيها ولو بالديون، ولو بالقروض المحرمة. وأذكر هنا أن قابلت أحد الإخوان الذين يظهر عليهم أثر الاستقامة والتدين، فسألته عن أحواله فأخبر بأنه في حالة حسنة؛ فله دخل جيد وسكن وسيارة، وليس عليه ديون..

ولكنه قال: إنه يسعى للحصول على قرض كبير، فقلت له: ما حاجتك الى القرض؟ فأخبرني بأنه يريد المساهمة به في مشروع تجاري مربح، فتعجبت من صنيعه هذا..

ونصحته بأن يحمد الله عز وجل على الكفاية وحسن الحال وعدم الديون، وأن يحذر من التكاثر في المال بتحميل نفسه من الديون بما هو في غنى عنه ولا حاجة له فيه، وقلت له: من يوفي عنك دينك إذا مت؛ ولا سيما أن لا حاجة لك في الدين، إلا مجرد التكاثر وزيادة رصيد أموالك.

وأمثال هذا الأخ كثير وكثير، ولا سيما بعد انتشار شركات الأسهم، والاكتتاب فيها والبيع والشراء فيها.. نسأل الله العافية والسلامة.

ترف المساكن اليوم

وإن الناظر الى مساكننا اليوم وما فيها من الترف والزخارف والإنفاق في جمالياتها وكمالياتها وكثرة منازلها وارتفاع بنيانها والتطاول فيها، لَيرى مصداق قوله تعالى: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾؛ لأن أكبر دافع لذلك هو التنافس والتفاخر مع الآخرين ومسايرتهم.

قال في روح المعاني عن الحسن البصري رحمه الله تعالى قال:

كنت وأنا مراهق أدخل بيوت أزواج النبيِّ صلى الله عليه وسلم في خلافة عثمان فأتناول سقفها بيدي، وهدمها عمر بن عبدالعزيز بعد موت أزواجه عليه السلام وأدخلها في المسجد.

قال بعضهم: ما رأيت باكيا أكثر من ذلك اليوم..

وليتها تُركت ولم تهدم حتى يقصر الناس في البناء، ويرضون بما رضي الله لنبيه عليه السلام، ومفاتيح خزائن الأرض بيده عليه السلام.

أي فإن ذلك مما يزهد في التكاثر والتفاخر في البنيان(2).

أما حين تأتي للأثاث والترف فيها فحدث ولا حرج عن الانفاق الزائد في توفيرها، وكثير منها يمكن الاستغناء عنه؛ ولكنه التكاثر والتنافس في متاع الحياة الدنيا.

ويكفي أن نلقي نظرة سريعة على حياتنا ليظهر لنا ذلك الترف العظيم، والتنافس الخطير، والاستكثار المحموم فيها؛ لا للحاجة ولكن لمجرد الترف فيها. قال في قوت القلوب:

من الزهد أن يكون الشيء الواحد يستعمل في أشياء كثيرة، كذلك كانت سيرة السلف في الأثاث وهو التقلل.

كما أن أبناء الدنيا يستعملون للشيء الواحد أشياء كثيرة وهو وصف التكاثر، وذلك من أبواب الدنيا(3).

ثانيا: التكاثر في الأولاد والأنساب

وهذا امر مُشاهَد لا يحتاج الى مزيد تمعن ونظر؛ ولا سيما الأنساب والتكاثر فيها والتفاخر بها، وهذا مصداق قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أربع في أمتي من امر الجاهلية، لا يتركونهن: الفخر في الأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة(4).«

وفي تفسير التكاثر معنى آخر لقوله تعالى: ﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾، وذلك أن التكاثر بلغ بالمشركين إلى أن ذهبوا إلى المقابر، وتكاثروا، وتفاخروا بمن فيها من الأموات من آبائهم وأجدادهم المقبورين، وكانت هذه الحالة معروفة عندهم ولها محكّمون.!!

والتفاخر والتعاظم بالآباء والأجداد من أهم مظاهر الحياة الاجتماعية عند أهل الجاهلية؛ حيث كان بعضهم يفخر على بعض بالسيادة والشرف والكثرة والحسب والنسب، حتى إنهم ينطلقون في بعض الأحيان إلى القبور، ويشيرون إلى القبر بعد القبر ويقولون: فيكم مثل فلان ومثل فلان؟

وفي ذلك قال بعض المفسرون: إن في ذلك نزل قوله تعالى ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ ولكن سبب النزول هذا مرجوح.

ومثل هذا في واقعنا المعاصر ما تقوم به بعض القبائل من اجتماع سنوي لكل من المنتسبين لهذه القبيل أو تلك، ويكون فيه من المدائح والثناء على القبيلة ورموزها ووجهائها والتفاخر بذلك.

ومثل ذلك ما انتشر أيضا ما انتشر عن بعض العوائل بما يسمى بشجرة العائلة، وإن كان هذا في حد ذاته لا بأس به لو اقتصر على معرف نسب العائلة والمنتسبين إليها من آباء وأجداد وأبناء وأحفاد؛ ولكنه تجاوز ذلك إلى الافتخار بهذه الشجر، والتعصب لها، وإبرازها في المجالس للزائرين والضيوف والتباهي بها، والتكاثر بالمنتسبين إليها، وتكاثر كل أب بما تحته من أولاد في هذه الشجرة.

ومما له صلة بهذا تكاثر كثير من أبناء هذه القبيلة أو تلك بمواشيهم من الإبل والغنم، وذلك فيما يسمونه «مزاين الإبل والغنم»؛ حيث يتفاخرون بها، ويتكاثرون، ويغالون في أثمانها بمئات الألوف والملايين.

ثالثا: التكاثر بالجاه والشهرة والرئاسات والشهادات والمناصب

وهذا النوع من التكاثر يعد أخطر على المرء من التكاثر بالمال والولد، ولا سيما إذا كان طلب الجاه والشهرة بالعلم والدين؛ كما جاء في حديث سابق: «ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه»(5).

يقول الإمام الزهري رحمه الله:

ما رأينا الزهد في شيء أقل منه في الرئاسة، وترى الرجل يزهد في المطعم والشراب والمال؛ فإذا نوزع الرياسة حامَى عليها وعادى(6).

فكما أن المال: ملك الأعيان المنتفع بها، فإن الجاه ملك القلوب المطلوب تعظيمها وطاعتها، والتصرف فيها من تحصيل المنزلة في قلوب الخلق.

وهو اعتقاد القلوب نعتا من نعوت الكمال في هذا الشخص؛ إما من علم أو عبادة أو نسب أو منصب أو شهادات أو قوة أو إعانة أو حسن صورة أو غير ذلك مما يعتقد الناس كمالا. فبقدر ما يعتقدون له من ذلك تذعن قلوبهم لطاعته ومدحه وخدمته وتوقيره.

والحقيق أن هذا اللون من المكاثرة أشد فتكا وأعظم خطرا من المكاثرة بالأموال والأولاد، مما يدخل تحت النوع الأول ذلك أن أكثر الناس إنما هلكوا لخوف مذمة الناس وحب مدحهم؛ فصارت حركاتهم كلها على ما يوافق رضى الناس رجاء المدح وخوفا من الذم، وذلك من المهلكات.

ولا يخفى أن من غلب على قلبه حب الجاه صار مقصورَ الهَمّ على مراعا الخلق، مشغولا بالتردد إليهم والمراءاة لهم، ولا يزال في أقواله وأفعاله ملتفتا إلى ما يعظم منزلته عندهم, ويقتنص به قلوبهم!! وهذا جذر النفاق وأصل الفساد(7).

رابعا: التكاثر بالأتباع والشيوخ

وهذا النوع من التكاثر منشؤه من حب الشهرة والثناء والمباهاة، وهذه أمراض وآفات ومهلكات.

وينتشر هذا النوع من التكاثر غالبا في أوساط العلماء وطلاب العلم؛ حيث نجد منهم من يذْكر كثرة طلابه وأتباعه والمتأثرين به، وكثرة المتابعين له في أجهزة التواصل اليوم، أو كثرة شيوخه ـ ولا سيما المشهورين منهم ـ ولو أنه لم يلتق به إلا مر واحدة.

ومن علامات هذا التكاثر: محبة الاجتماع حوله، وزهوه بكثر الأتباع والدارسين، وتوقيرهم له، وخدمتهم له.

ويفرح إذا عظمت حلق الدرس عنده، وكثر متابعوه في التواصل. ويضيق ويتبرّم إذا قَلّ عدد الدارسين عنده أو انتقلوا إلى غيره، ويردد على لسانه ذكر دروسه وكثرة من يحضرها، وقوله: «هذا من طلابي» و«هؤلاء طلابي» و«المتابعون لي في التواصل الاجتماعي بالآلاف والملايين!!«

قال ابن الجوزي رحمه الله:

ومنهم ـ أي العلماء وطلاب العلم ـ من يفرح بكثرة الأتباع، ويلبّس عليه إبليس أن هذا الفرح لكثرة طلاب العلم. وإنما مراده كثرة الأصحاب واستطارة الذِكر، وينكشف هذا بأنه لو انقطع بعضهم إلى غيره ممن هو أعلم منه ثقل ذلك عليه!!

وما هذه صفة المخلص في التعليم؛ لأن مثل المخْلص مثل الأطباء الذين يداوون المرضى لله سبحانه وتعالى، فإذا شفي بعض المرضى على يد طبيب منهم فرح الآخر(8).

تنبّه السلف من الصحابة وتوقيهم لهذه المزالق

وقد كان السلف الصالح يتَوَقّون هذه المزالق أشد التوقّي ويتحاشون الوقوع فيها.

فعن سليم بن حنظلة قال: «أتينا أبي بن كعب رضي الله عنه لنتحدث إليه فلما قام قمنا ونحن نمشي خلفه، فرهقنا عمر؛ فتبعه فضربه بالدرة!! قال: فاتقاه بذراعيه.

فقال: يا أمير المؤمنين ما نصنع؟! قال: أو ما ترى؟! فقال: فتنة للمتبوع؛ ومذلة للتابع»(9).

وعن علي رضي الله عنه قال: «يا حملة القرآن اعملوا به فإن العالم من عمل بما علم ووافق عمله علمه، وسيكون أقوام يحملون العلم لا يجاوز تراقيهم، ويخالف سريرتهم علانيتهم، ويخالف عملهم علمهم..

يجلسون حِلقا فيباهي بعضهم بعضا، حتى أن أحدهم ليغضب على جليسه حين يجلس إلى غيره ويدَعه. أولئك لا تصعد أعمالهم في مجالسهم تلك إلى الله»(10).

ولما مشوا خلف علي رضي الله عنه قال: «كفوا عن خفق نعالكم فإنها مفسدة لقلوب نوكى الرجال»(11).

وخرج ابن مسعود رضي الله عنه من منزله فتبعه جماعة فالتفت إليهم وقال: «علام تتبعوني؟ فوالله لو تعلمون ما أغلق عليه بابي ما تبعني منكم رجلان»، وفي بعض الروايات قال: ألكم حاجة؟ قالوا: لا، قال: ارجعوا؛ فإنه ذلة للتابع وفتنة للمتبوع»(12).

تنبّه السلف من بعد الصحابة لهذه الفتنة

وكان أبو العالية رحمه الله إذا عظمت حلقته قام وانصرف؛ كراهة الشهرة(13).

وقال شعبة: «ربما ذهبت مع أيوب السختياني لحاجة فلا يدعني أمشي معه، ويخرج من هاهنا وهاهنا، لكي لا يفطن له»(14).

وكان الإمام أحمد رحمه الله إذا مشى في الطريق يكره أن يتبعه أحد وكان يقول: «أشتهي مكانا لا يكون فيه أحد من الناس»(15).

وعن الحسن رحمه الله: «لا تغرنك كثرة من ترى حولك؛ فإنك تموت وحدك، وتبعث وحدك، وتحاسَب وحدك»(16).

وقال الأعمش: «جهدنا بإبراهيم حتى نجلسه إلى سارية فأبى»(17).

وكان الحارث بن قيس الجعفي يجلس إليه الرجل والرجلان فيحدثهما فإذا كثروا قام وتركهم(18).

وكان محمد بن سيرين إذا مشى معه الرجل قام فقال: «ألك حاجة؟! فإن كانت له حاجة قضاها، وإن عاد مشي معه قام، فقال: ألك حاجة؟!»(19).

قال إبراهيم النخعي: «إياكم أن توطأ أعقابكم»(20).

قال عبد الرحمن بن مهدي: «كنت أجلس يوم الجمعة فإذا كثر الناس فرحت، وإذا قلّوا حزنت، فسألت بشر بن منصور، فقال: هذا مجلس سوء فلا تعد إليه! فما عدت إليه!! »(21).

....

هوامش:

1. انظر الفوائد لابن القيم ص30-31.
2. روح المعاني4\211.
3. قوت القلوب 1\427.
4. مسلم 934.
5. الترمذي (4/ 588) (2376) وقال حديث حسن صحيح.
6. سير أعلام النبلاء 7-262.
7. انظر مختصر منهاج القاصدين ص211-212.
8. تلبيس إبليس ص131.
9. مصنف ابن أبي شيبة107/11.
10. كنز العمال 29419.
11. كنز العمال 830/3 (نوكى الرجال) أي الحمق منهم.
12. مصنف ابن أبي شيبة 20/9.
13. تهذيب الكمال170/8.

14.سير أعلام النبلاء 6-25.
15.الآداب الشرعية 2-92.
16.حلية الأولياء 2-155.
17.الزهد لابن المبارك 1-389.
18.تهذيب الكمال 5- 273.
19.صفة الصفوة 3-243.
20.سنن الدارمي 132/1.
21.سير أعلام النبلاء 22/6.

ألهاكم التكاثر .. غرائب العلم وتفريعاته للمباهاة

في المقال الأول تم بيان بعض أنواع التكاثر المذموم بالمال، ثم الأولاد والأنساب، الجاه والرئاسات، ثم الأتباع والشيوخ.. وفي هذا المقال يوضح الكاتب خطر المكاثرة في مجال العلم، وهو ما يغفل عنه الكثير..

خامسا: التكاثر بالعلم والكتب

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى:

فالتكاثر فيي كل شيء من مال أو جاه أو رياسة أو نسوة أو حديث أو علم؛ ولا سيما إذا لم يحتج إليه. والتكاثر في الكتب والتصانيف وكثرة المسائل والتفريعات وتوليدها(1).

والمكاثرة بالعلم والكتب لها صور كثيرة من أهمها:

التكاثر باقتناء الكتب وتأليفها

التكاثر باقتناء الكتب بطبعاتها المختلفة والمكاثَرة بتأليفها وتكبيرها

لا شك أن اقتناء كتب العلم لمن يستفيد منها من العلماء وطلاب العلم أمر مطلوب، وفيها من الفائدة والنفع ما لا يخفى.

ولكن إذا تحول هذا الاقتناء إلى مكاثَرة ومُفاخَرة ومباهاة مع قلة الاستفادة منها فهذا هو الأمر المذموم، وهذا هو الذي يدخل تحت قوله تعالى: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾.

ومن ذلك التكاثر باقتناء المخطوطات بأنواعها المختلفة من غير استفادة منها في تحقيق أو دراسة.

ومن ذلك كثرة التأليف في أمور لا فائدة فيها: مكررة، ونفخ الكتب بكثرة الهوامش والمقدمات والتراجم والمباهاة بكثرة المراجع في خاتمة الكتاب.

ومن ذلك التكاثر بزخرفة الكتب، والمكاثرة بتقريظ بعض المشايخ أو طلاب العلم لها وثنائهم عليها، وملء جلدة الكتاب بها، حتى لا تكاد تجد فيها فراغا، وكأنها من صفحات الكتاب الداخلية.

تنبيه أهل العلم

يقول الشيخ عبدالكريم الخضير حفظه الله تعالى في معرض جواب له عن سؤال: كيف يبني طالب العلم مكتبته؟

»لا يخلو عالم أو طالب علم من مكتبة؛ لأنه لا يمكن أن يستغنى عن الكتب؛ حتى زاد هذا الاهتمام ووصل إلى حد التكاثر والتفاخر.

في نفح الطيب للمقرِي في وصف قرطبة قال:

"وهي أكثر بلاد الأندلس كتبًا، وأشد الناس اعتناء بخزائن الكتب" صار ذلك عندهم من آلات التعين والرئاسة، حتى أن الرئيس منهم الذي لا تكون عنده معرفة يحتفل ويهتم في أن تكون في بيته خزانة كتب، وقد يكون لا يقرأ ولا يكتب، وينتخب فيها، ليس إلا لأن يقال: فلان عنده خزانة كتب، الكتاب الفلاني لا يوجد إلا عند فلان، لا يوجد عند غيره، والكتاب التي بخط فلان قد حصله وظفر به»(2).

فصارت المسألة تفاخرًا وتكاثرًا...... إذا وصل جمع الكتب والعناية بها إلى هذا الحد صارت مما يلهي ويشغل عن تحصيل العلم والعمل الصالح، فيدخل دخولًا أوليًّا في قوله تعالى: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ مجرد تكاثر، هذا وُجد في المتقدمين والمتأخرين....

على الإنسان أن يكون متوسطًا في أموره كلها، ما يحتاجه من الكتب يقتنيه، ما ينفعه عند المراجعة يقتنيه، أما أن يجمع كل كتاب يسمع عنه، يحتاجه أو لا يحتاجه، ليقال: إن عنده من كل كتاب نسخة، فهذه مصيبة!!

إن الفائدة من جمع الكتب تحصيل العلم الشرعي، والعلم الشرعي من أمور الآخرة المحضة التي لا يجوز التشريك فيها. فإذا دخلت النوايا مثل هذه المقاصد، ليقال: إن عند فلان مكتبة أو عنده أكبر مكتبة خاصة.

فهذه حقيقة مُرة، وقدح ظاهر في الإخلاص، وإن وُجدت عند بعض المتعلمين. نسأل الله السلامة والعافية»(3).

في المباهاة بطلب العلم ومعرفة الغرائب

التكاثر والمباهاة في طلب العلم، ولا سيما الفقه منه والحديث، والمباهاة بمعرفة دقائقها وغرائبها

يقول الغزالي رحمه الله تعالى عن أصناف الناس في طلب العلم:

واعلم أن الناس في طلب العلم ثلاثة أحوال:

رجلٌ طلب العلم ليتخذه زاده إلى المعاد، ولم يقصد به إلا وجه الله والدار الآخرة..
فهذا من الفائزين.

ورجل طلبه ليستعين به على حياته العاجلة، وينال به العز والجاه والمال، وهو عالمٌ بذلك، مستشعرٌ في قلب ركاكة حاله وخِسَّةَ مقصِدِه.
فهذا من المخاطرين، فإن عاجَلَه أجلُه قبل التوبة خيفَ عليه من سوء الخاتمة، وبقي أمره في خطر المشيئة؛ وإن وُفِّقَ للتوبة قبل حلول الأجل، وأضاف إلى العلم العمل، وتدارك ما فرط منه من الخَلَل ـ الْتحق بالفائزين، فإن التائبَ من الذنب كمن لا ذنب له.

ورجل ثالث استحوذ عليه الشيطان؛ فاتخذ علمه ذريعة إلى التكاثر بالمال، والتفاخر بالجاه، والتعزز بكثرة الأتباع، يدخل بعلمه كلَّ مُدْخَل رجاء أن يقضى من الدنيا وطره، وهو مع ذلك يضمر في نفسه أنه عند الله بمكانة، لاتسامِهِ بسِمَةِ العلماءِ، وترَسُّمه برسومهم في الزِّى والمنطِق، مع تكالبه على الدنيا ظاهراً وباطناً..

فهذا من الهالكين، ومن الحمقى المغرورين؛ إذ الرجاء منقطع عن توبته لظنِّه أنه من المحسنين، وهو غافل عن قوله تعالى ﴿يَأيُها الَّذين آمنوا لِمَ تَقولونَ مالا تَفعَلون﴾.

وهو ممن قال فيهم رسول الله: «أنا من غير الدجال أخوَف عليكم من الدجال» فقيل: وما هو يارسول الله؟، فقال: «علماء السوء»(4).

وهذا لأن الدجال غايته الإضلال، ومثل هذا العالِم وإن صَرَفَ الناس عن الدنيا بلسانه ومقاله فهو دافع لهم إليها بأعماله وأحواله، ولسان الحال أفصَحُ من لسان المقال، وطباع الناس إلى المساعى في الأعمال أميَلُ منها إلى المتابعة في الأقوال..

فما أفسده هذا المغرور بأعماله أكثر مما أصلحه بأقواله، إذ لا يستجرىء الجاهل على الرغبة في الدنيا إلا باستجراء العلماء، فقد صار علمه سببا لجرأة عباد الله على معاصيه، ونفسُه الجاهلة مذلة مع ذلك تمنيه وترجيه، وتدعوه إلى أن يمن على الله بعلمه، وتخيل إليه نفسه أنه خير من كثير من عباد الله.

فكن أيها الطالب من الفريق الأول، واحذر أن تكون من الفريق الثاني، فكم من مُسَوِّفٍ عاجَلَهُ الأجل قبل التوبة فخسر، وإيّاك ثم إيّاك أن تكون من الفريق الثالث، فتهلك هلاكا لا يُرجى معه فلاحك، ولا يُنتظر صلاحك(5).

المكاثرة بتفريع المسائل، وشواذها

ومن صور التكاثر في طلب العلم والمباهاة فيه التكاثر بالمسائل وتفريعها وتوليدها وافتراضها والانشغال بالأقوال الشاذة عن المهم من العلوم في التفسير والعقيدة والفقه والحديث.

التكاثر بكثرة التخريجات لما هو في الصحيح

ومن التكاثر في العلم ولا سيما في علم الحديث التكلف في كثره التخريجات، وذكر الطرق لحديث صحيح ، جاء مخرجاً في الصحيحين أو أحدهما.

ومن لطيف ما ورد في هذا المعني ما اخرجه ابن عبد البر رحمه الله في جامعه عن حمزه الكناني رحمه الله قال:

خرّجتُ حديثا واحداً عن النبي صلي الله عليه وسلم من مئتي طريق أو من نحو مئتي طريق ـ شك الراوي ـ قال : فرأيت ليله من الليالي يحيي بن معين في المنام.

فقلت له: يا أبا زكريا! خرجت حديثا واحدا عن النبي صلي الله عليه وسلم من مئتي طريق، قال: فسكت عني ساعة ثم قال: أخشى أن يدخل هذا تحت ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾(6).

وقد ساق الشاطبي رحمه الله هذه الحكاية في الموافقات وعقب عليها بقوله:

وهو صحيح في الاعتبار، لأن تخريجه من طرق يسيرة كاف في المقصود، فصار الزائد على ذلك فضلا(7).

وقد ذكر ابن الجوزي رحمه الله تعالى:

أن قوما أكثروا سماع الحديث، ولم يكن مقصدهم صحيحا، ولا أرادوا معرفة الصحيح من غيره بجمع الطرق..

وإنما مرادهم العوالي والغرائب، فطافوا البلدان، ليقول أحدهم: لقيت فلانا، ولي من الأسانيد ما ليس لغيري، وعندي أحاديث ليست عند غيري.

وهذا كله من الإخلاص بمعزل، وإنما مقصدهم الرئاسة، والمباهاة، ولذلك يتبعون شاذ الحديث وغريبه(8).

وكان الإمام أحمد رحمه الله تعالى ينكر على الذي يطلب الأسانيد الغريبة التي أخطأ فيها الرواة ويستكثر من ذلك، وقال:

يجيئون بثلاثين إسنادا أونحو ذلك، ما أقل العلم عندهم

يعني يضيعون الوقت في سماع الأخطاء التي أخطأ فيها الرواة(9).

وقيل ليحيى بن معين رحمه الله تعالى: لماذا لا تسمع بعض الأحاديث الغرائب؟ قال: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ يعني أن تستكثروا من الأشياء التي لا منفعة فيها، ولا تأثير فيها، ولا رجاء من ورائها(10).

وقال ابن قتيبة رحمه الله تعالى في غريب الحديث:

ونعوذ بالله من حيرة الجهل وفتنة العلم وإفراط التعمق، وأن يشغلنا التكاثر في العلم عن التفقه فيه، ويقطعنا ما وضعه الله عنا عما كلفنا فيه(11).

وصدق ابن قتيبة رحمه الله تعالى؛ فكم رأينا من ينشغل بمُلَح العلم وفروعه، التي لم يوجب الله علينا تعلمها عما كلفنا به من العلوم العينية، التي لا يسع أحد جهلها: كأحكام الوضوء والطهارة والصلاة والصيام وغير ذلك من فروض العين.

التكاثر بإجازات القراءة والرواية

ومن صور التكاثر بالعلم ما يحرص عليه بعض المنتسبين إلى علم الحديث والقرآن من الحصول على الإجازات في رواية الحديث أو بعض القراءات والتكاثر والتفاخر بها. والله أعلم بما في القلوب.

التنطع في الترتيل وتمطيط الأصوات

ومن صور التكاثر بالعلم ما يقع فيه بعض القراء وأئمة المساجد من التكلف والتنطع في ترتيل القرآن في الصلوات الجهرية..

ولا سيما في صلاة التراويح والقيام في رمضان، والتكاثر في تنويع الأصوات وتمطيطها ورفعها.

التكاثر في الدعاء وتكلفه

وكذلك التكاثر في دعاء القنوط أو عند ختم القرآن برفع الأصوات وتنوع الدعاء، والإتيان بدعوات مخترعة، لا يخلو بعضُها من مخالفات، وترْك الجوامع من الأدعية النبوية الصحيحة، وتكلف البكاء ورفع الصوت في ذلك. وإطالة الدعاء.

ولا يخفى ما في ذلك من الاعتداء في الدعاء والمكاثرة به وقد قال الله تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (الأعراف:55.)

وقد يكون في ذلك إرضاء المصلين وجذبهم للصلاة خلفهم، وكل هذا لا يغني عند الله عز وجل؛ حيث لا يبقى إلا العمل الصالح الذي يكون صاحبه مخلصا لله عز وجل متبعا للرسول صلى الله عليه وسلم.

ومثل هذه المكاثرة في القراءات والأدعية قد ينقصها الإخلاص والمتابعة.. والله أعلم بمن اتقى.

المكاثرة والمباهاة بأخذ المال على الدين!..

ومن صور التكاثر بالعلم المكاثرة بأخذ الأموال على تسجيل محاضرة أو درس أو قراءة قرآن في صلاة التراويح والقيام وادعاء حفظ حقوقها لمحل التسجيل أو للقارىء والمحاضر.

ولا يخفى ما في هذا الصنيع من الجشع وطلب الدنيا بالدين، وقد مر بنا قوله صلى الله عليه وسلم: «ما ذئبان جائعان أُرسلا في غنم بأفسدَ لها من حرص المرء على المال والشرف، لدينه».. (12).

كما مر بنا قوله صلى الله عليه وسلم أن: «لكل أمة فتنة وفتنة أمتي في المال»(13).

....

هوامش:

1. الفوائد ص30.
2. نفح الطيب 462/1.
3. انظر أرشيف ملتقى أهل الحديث 39/359-361 في المكتبة الشاملة.

4. لم أقف عليه في كتب الحديث المعروفة، وإن كان له شاهد في مصنف ابن أبي شيبة (38641) عن علي رضي الله عنه قال: «كنا عند النبي صلى الله عليه وسلم جلوسا وهو نائم، فذكرنا الدجال، فاستقظ محمرا وجهه، فقال "غيرَ الدجال أخاف عليكم عندي من الدجال:ائمه مضلون."
5. بدايه الهدايه: المقدمه ص2،1.
6. جامع بيان العلم وفضله (1023), 259/2.
7. الموافقات 114/1.
8. تلبيس إبليس ص104-105.
9. انظر أرشيف ملتقى أهل الحديث 196/3.
10. انظر أرشيف ملتقى أهل الحديث 196/3.
11. غريب الحديث 147/1.
12. سبق تخريجه.
13. أخرجه الترمذي (54/2) والبخاري في "التاريخ الكبير" (222/1/4) و ابن حبان (2470) والحاكم (318/4) وأحمد.(4/160)

ألهاكم التكاثر .. المآكل والزينة والترحال

تتناول هذه المقالات ذكر بعض الأنواع والمجالات التي يتكاثر فيها الناس ولا سيما في زماننا اليوم ..
فتناول المقال الأول التكاثر المذموم في المال، وفي الأولاد والأنساب، وفي الجاه والرياسات، ثم في الأتباع والشيوخ.

وتناول المقال الثاني التكاثر المذموم في العلم والكتب وطلب الغرائب وكثرة التفريعات للمباهاة..

ويتناول هذا المقال التكاثر المذموم في المأكولات والمشروبات وفي اللباس والزينة والرياش، وفي الأجهزة العصرية ولعب الأطفال وفي الأسفار والترحال.

سادسا:

التكاثر في المأكولات والمشروبات

لقد بلغ الترف في المأكولات والمشروبات والمكاثرة فيها مبلغا لم سبق له نظير في الأزمنة السابقة، وأُلِّفت في فنون الطبخ الكتب والمجلات، وأنشئت المواقع الإلكترونية، وتزاحمت المطاعم في الشوارع، وامتلأت الأسواق والمحلات بكم هائل من المطعوم والمشروب..

وتسابق الناس إليها، وتنافسوا في ملء بيوتهم منها، وتسابقوا إلى ملء المطاعم يعبّون منها كل ما لذّ لهم من أنواع المشروبات والمأكولات بأنواعها المختلفة والكثيرة، حتى بلغ في بعض المطاعم ما يربو على خمسين صنفا من الأكل والشرب في قائمة المطعم التي تقدَم للمرتادين.

التحذير من ملء البطون

ونسينا في خضمّ هذا الكم من المأكول والمشروب قول الله عز وجل: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ (الأحقاف:20..)

ونسينا قوله صلى الله عليه وسلم: «ما ملأ ابن آدم وعاءً شرا من بطن. بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه؛ فإن كان لا محالة، فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفَسه» (1).

وقوله صلى الله عليه وسلم: «المؤمن يأكل في معى واحد، والكافر يأكل في سبع أمعاء»(2).

وصدق الرسول صلى الله عليه وسلم؛ فلقد رأينا الشرور والأمراض في زماننا اليوم في شكل لم يسبق له نظير؛ فقد ظهرت أمراض كثيرة: كالسكري وارتفاع الضغط والجلطات والسكتات والأورام الخبيثة، ويرجع أغلبها إلى كثرة الأكل وأنواعه واستيراده بعجره وبجره.

مساويء عادة خبيثة انتشرت مؤخرا

وقد انتشرت في الأزمنة الأخيرة عادة دخيلة على مجتمعات المسلمين، فيها من التكاثر والترف والإسراف في المآكل والمشارب الشيء الكبير، ألا وهي ما يسمى (بالبوفيهات المفتوحة)، التي غالبا ما تقام في مناسبات الزواج والاحتفالات الكبيرة.. وفيها مساوئ شرعية من أهمها:

- أن هذه العادة عادة غربية بحتة، جاءت من أمم الكفر الذين لا هَمّ لهم إلا متاع الحياة الدنيا، ففيها من التشبه بالكفار ما لا يخفى على أحد.. وقد صح عنه صلى الله عليه وسلم: «من تشبه بقوم فهو منهم.(3)«

- وفيها من التكاثر والتباهي والتفاخر بكثرة المأكولات والمشروبات والإسراف فيها إلى حد كبير، يصل في بعض المناسبات إلى ما لا يقل عن خمسين صنفا من الطعام، في الوقت الذي يعاني فيه كثير من المسلمين في بقاع الأرض من الجوع والتشريد والضنك في المعيشة ما لا يعلمه إلا الله عز وجل.
فإن لم يكن هذا من التكاثر الذي حذرنا الله عز وجل منه بقوله ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ فأين يكون التكاثر؟
- فيها من البطر والمباهاة ما قد يصل بأهله إلى الكبر والترفع عن الناس.
- تكليف صاحب الزواج وأهله ما لا يحتملون من الإنفاق على هذه (البوفيهات)، وقد يضطرهم إلى تحمل الديون ليتكاثروا مع غيرهم، ويسايروهم، ولا يتخلفوا عنهم.
- الإخلال بآداب الضيافة والإكرام للضيوف القائم على خدمة الضيف وتقديم الطعام إليه؛ حيث إن الحاصل في مثل هذه الموائد أن الضيف يطلب منه أن يقوم إلى الطعام يخدم نفسه بنفسه، ويقف في طابور ماسك بصحنه..
ولا يخفى ما في ذلك من الإهانة للضيف وليس الإكرام. قال الله عز وجل عن خليله إبراهيم صلى الله عليه وسلم وإكرامه لضيوفه المكرمين: ﴿فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ * فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾).الذاريات:26-27(
- الأكل على المناضد (الطاولات) وهي (الخوان)، وهذه من عادة المترفين والمترفعين، وكان من هَدْيه صلى الله عليه وسلم أن يأكل على الأرض، ويكره الأكل على خوان.
وقد ثبت في صحيح البخاري عن أنس رضي الله عنه أنه قال: «لم يأكل النبي صلى الله عليه وسلم على خوان حتى مات، وما أكل خبزا مرققا حتى مات»(4).

قال ابن حجر رحمه الله تعالى في شرحه لهذا الخبر: قال ابن بطال:

تركه صلى الله عليه وسلم الأكل على الخوان وأكل المرقق؛ إما هو لدفع طيبات الدنيا اختيارا لطيبات الحياة الدائمة، والمال إنما يرغب ليستعان به على الآخرة....
وحاصِلُه أن الخبر لا يدل على تفضيل الفقر على الغنى، بل يدل على فصل القناعة والكفاف وعدم التبسط في ملاذ الدنيا(5).

وقال ابن بطال في شرحه للخبر:

أكل المرقق مباح، ولم يتجنب النبي صلى الله عليه وسلم أكله إلا زهدا في الدنيا، وتركا للتنعم، وإيثارا لما عند الله كما ترك كثيرا مما كان مباحا، وكذلك الأكل على الخوان مباح أيضا(6).

وجاء أيضا في شرح هذا الخبر في تحفة الأحوذي شرح سنن الترمذي:

قال التوربشتي: الخوان: الذي يؤكل عليه، معرب، والأكل عليه لم يزل من دأب المترفين وصنيع الجبارين لئلا يفتقروا إلى التطأطئ عند الأكل. كذا في المرقاة(7).

- فيه من الإسراف وتبذير المال وتبذير الطعام ورميه في أوعية النفايات بما لا يقرّه شرع ولا عقل.
- ومن مساوئها عدم الاجتماع على الطعام، فكل شخص يختص بصحنه وطعامه، لا يشاركه فيه الآخر، ولا يخفى ما في الأكل من طعام مشترك من الأنس واجتماع القلوب وحضور البركة ما لا يكون في التفرق.
  وقد جاء في سنن أبي داود رحمه الله تعالى أن رجلا قال للنبي صلى الله عليه وسلم إنا نأكل ولا نشبع؛ قال: «لعلكم تأكلون متفرقين، اجتمعوا على طعامكم، واذكروا اسم الله؛ يبارك لكم فيه»(8).

سابعا: التكاثر في اللباس والرياش والزينة

وهذا النوع من التكاثر من الوضوح والظهور مما لا يحتاج فيه الأمر إلى مزيد من القول والإثبات؛ بل إنه مما تميز به زماننا اليوم، وتنافس الناس فيه، وتكاثروا في أشكاله، وتفاخروا.

هو ذلك التكاثر في أنواع الملبوسات والرياش ـ ثيابا وعباءات وجلاليب وأحذية وغيرها ـ فتبارى الناس فيها كما وكيفا، فأصبحنا نرى العشرات من الثياب والعباءات والأحذية لشخص واحد ولموسم واحد ـ وما نبرئ أنفسنا ـ فلقد امتد هذا النوع من التكاثر إلى كثير من الدعاة وطلبة العلم..

حتى إنه ذُكر لي أن بعض أئمة المساجد يمتلكون الكثير من العباءات (البشوت) متعددة الأشكال، غالية الأسعار، يظهرون فيها للمصلين كل يوم في لون ونوع من هذه العباءات؛ أفليس هذا من التفاخر والتكاثر؟

في الوقت الذي يعاني بعض إخواننا المسلمين المشردين في شح اللباس، حتى لا يكاد يجد الواحد منهم ما يستر به جسمه، فضلا أن يجد من اللباس ما يقيه البرد أو حر الشمس.

خصوص هذا الخطر بين النساء

ولقد برز هذا النوع من التكاثر وبلغ ذروته في أوساط النساء.

فنظرة سريعة تنظر فيها المرأة إلى نفسها وما في خزانتها من الثياب والأحذية بمختلف أنواعها وأشكالها تراها وبشكل واضح وصارخ أنها تدخل تحت قوله تعالى: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾..

فكم من العشرات من الثياب والأحذية تملكها وبأثمان غالية، وكم من ثوب لبسته المرأة مرة واحدة، لم تلبسه بعد ذلك لظهور موضات جديدة من الثياب؛ فتستحيي أن تظهر بين جليساتها في ثوب قديم!!

خطورة بيوت الأزياء

وأصبح النساء بهذه المكاثرة والمفاخرة أسيرات لبيوت الأزياء العالمية الكافرة، حيث تلعب هذه البيوت بعقول النساء القاصرة، فأشغلوهن بهذه الموضات ومتابعتها والمكاثرة فيها.

هذا من جانب المكاثرة والتباهي، أما إذا جئنا إلى أشكال هذا اللباس وما فيه من المخالفات الشرعية من ضيّق وشفاف وشبه عار؛ فحدّث ولا حرج، ولا حول ولا قو إلا بالله العلي العظيم.

يقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله تعالى في حديثه عن ظاهر استعباد بيوت الأزياء للنساء:

"وهذه التصورات المبهمة الغامضة؛ وهذا العرف الاجتماعي الذي ينبثق منها، ويضغط على جمهرة الناس بثقله الساحق.. لا ينحصر في تلك الصور التي عرفتها الجاهليات القديمة.

فنحن نشهده اليوم بصورة أوضح في الجاهليات الحديثة..

هذه العادات والتقاليد التي تكلف الناس العنَت الشديد في حياتهم، ثم لا يجدون لأنفسهم منها مفرا..

هذه الأزياء والمراسم التي تفرض نفسها على الناس فرضا، وتكلفهم أحيانا ما لا يطيقون من النفقة، وتأكل حياتهم واهتماماتهم، ثم تفسد أخلاقهم وحياتهم. ومع ذلك لا يملكون إلا الخضوع لها..

أزياء الصباح، وأزياء بعد الظهر، وأزياء المساء.. الأزياء القصيرة، والأزياء الضيقة، والأزياء المضحكة! وأنواع الزينة والتجميل والتصفيف... إلى آخر هذا الاسترقاق المذل..

من الذي يصنعه؟ ومن الذي يقف وراءه؟

تقف وراءه بيوت الأزياء. وتقف وراءه شركات الإنتاج!

ويقف وراءه المرابون في بيوت المال والبنوك من الذين يعطون أموالهم للصناعات ليأخذوا هم حصيلة كدّها!

ويقف وراءه اليهود الذين يعملون لتدمير البشرية كلها ليحكموها.(9)"!

ثامنا: التكاثر في اقتناء أجهزة التقنية المعاصرة

من حواسب وأجهزة اتصالات وقنوات..

والمتابع لهذا النوع من التكاثر يجده واضحا وضوح الشمس، حيث أصبح منتشرا في كثير من أوساط الناس ولا سيما الشباب والنساء؛ فنجد مثلا أن كثيرا من الأشخاص يتباهى ويتكاثر مع غيره في كونه يمتلك عددا من الحواسب (أجهزة الكمبوتر) وأعدادا من الجوالات: جوال للاتصال، وجوال عام، وجوال خاص، وجوال للتواصل وجوال لمتابعة الأخبار.

أو كونه يقتني كثيرا من القنوات، وكلما ظهر نوع جديد من هذه الأجهزة سارعوا في اقتنائها وترك القديم منها..

وكل ذلك بأثمان غاليةٍ ربما اشتراها بعض الناس بدَين على ظهره!! أفليس هذا من التكاثر؟

وإذا أضيف إلى ذلك التكاثر: التكاثر في الانشغال بها وضياع الأوقات في متابعة ما فيها؛ فيا لها من مصيبة!!

هذا إذا استُخدمت هذه الأجهزة في المباح؛ فكيف إذا استخدمت هذه الأجهزة في سماع ورؤية الحرام والتكاثر في ذلك؟؟ إن الأمر جد خطير. وصدق الله العظيم ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾.

تاسعا: التكاثر في ألعاب الأطفال ووسائل ترفيههم

اللعب عند الأطفال أمر لا ضير فيه، بل لا بد منه في حياتهم. وفوائدُه معروفة، ولس المقام مقام ذكر أهمية اللعب والمرح وفوائد ذلك للأطفال؛ فلذلك مقلك آخر.

وإنما الحديث هنا عن المغالات وإنفاق الأموال الطائلة في توفير الألعاب للأطفال بشتى أنواعها المفيد منها والضار، وتلبية رغبة الطفل في كل ما يريد من الألعاب، ميلا مع محبته والعاطفة نحوه دون التمييز بين هذه الألعاب.

وقد أدى هذا إلى امتلاء البيوت من الألعاب، التي تكاثر الناس فيها لأطفالهم؛ فلعبوا فيها يوما أو يومين، ثم هجروها إلى ألعاب جديدة، وهكذا حتى أرهق ذلك ميزانية كثير من البيوت بحجة الترفيه عن أطفالهم.

ومما يزيد الأمر خطورة ما ظهر في السنوات الأخيرة من أجهزة إلكترونية وفيديو في ألعاب الأطفال، وما تحمل من خطر كبير على عقيدة الطفل وأخلاقه ونفسيته وصحته(10)، دون أي مراقبة أو إشراف من الوالدين على ذلك..

وأصبحت ترى الطفل وبيده ما يسمى بالأجهزة الذكية من (آي فون) (وآي باد) دون رقيب أو حسيب، وأصبح التكاثر بين الأطفال فيها شيء ملاحظ، بل تكاثر فيها الآباء والأمهات لأطفالهم. وصدق الله العظيم ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾.

عاشرا: التكاثر في الأسفار والحل والترحال

وهذا النوع من التكاثر ظاهر عند بعض الناس وإن كانوا قِلة؛ فتراهم يتحدثون ويتفاخرون بكثرة أسفارهم وتنقلهم في البلدان، وقد يكون هذا لحاجة كالتجارة أو الدعوة، وقد يكون لغير حاجة؛ وإنما مجرد النزهة والسياحة.

وقد يكون والعياذ بالله للبحث عن الحرام، وليس الحديث هنا عن سفر المعصية؛ فله فقرة مستقلة آتية إن شاء الله تعالى، وإنما الحديث هنا عن الأسفار المباحة أو كونها للدعوة أو التجارة..

فلكم سمعنا من بعض الدعاة من (يكاثر) بأسفاره، ويعدد المدن والدول التي زارها والشخصيات التي قابلها! وقد يكون في ذلك مكاثرة..

وكم سمعنا من بعض العوائل الذين بدأوا يسافرون للنزهة في بلاد الغرب أو الشرق الكافرة، وما فيها من المنكرات، ومن يتباهى في ذلك، ويكاثر غيره فيها؛ مما جعل بعض الناس أفرادا أو عوائل يسعى للحاق بهؤلاء فأرهقوا أنفسهم ماديا ونفسيا، ليكاثروا غيرهم في ذلك تحت ضغط النساء والأطفال، وقد يضطر قيّم الأسرة إلى أن يُحمّل ظهره من الديون ليغطي نفقات السفر..

أليس هذا من التكاثر؟

بلى والله، وصدق الله العظيم ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾.

....

هوامش:

1. الترمذي (5380) وقال: هذا حديث حسن صحيح وصححه الألباني في الصحيحة.(2265) :
2. صحيح البخاري (5396), مسلم.(2062)
3. أخرجه أبو داود (4033), وصححه الألباني في إرواء الغليل.(5/109)
4. البخاري.(6450)
5. فتح الباري 280/11.
6. شرح صحيح البخاري لابن بطال469/9.
7. تحفة الأحوذي398/5.
8. سنن أبي داود (3766) وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب.(2128)
9. في ظلال القرآن 158/3.
10. انظر هذه الأخطار في كتاب: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ للمؤلف.

ألهاكم التكاثر .. الكلام والإعلام

تناولت هذه المقالات بعض الأنواع والمجالات التي يتكاثر فيها الناس ولا سيما في زماننا اليوم..

فتناول المقال الأول التكاثر المذموم في المال، وفي الأولاد والأنساب، وفي الجاه والرياسات، ثم في الأتباع والشيوخ.

وتناول المقال الثاني التكاثر المذموم في العلم والكتب وطلب الغرائب وكثرة التفريعات للمباهاة..

وتناول المقال الثالث التكاثر المذموم في المأكولات والمشروبات وفي اللباس والزينة والرياش، وفي الأجهزة العصرية ولعب الأطفال وفي الأسفار والترحال.

ويتناول هذا المقال ـ خاتمة هذه السلسلة ـ ببيان التكاثر المذموم في الكلام والمحاضرات والمقابلات الاعلامية، والتكاثر بالجهاد والغزو على سبيل المباهاة ـ رغم أنه من أعمال الآخرة ـ والتكاثر الأرذل والأشد ذما ـ في عمل المفاسد والمحرمات..

حادي عشر:التكاثر في الكلام والخطب والمحاضرات والمقابلات الإعلامية

دعوة الناس إلى الله عز وجل بالخطبة والمحاضرة والمواعظ والدروس، أمر يتراوح بين الواجب والمستحب، وهو أمر محبوب إلى الله عز وجل..

ولكن ينبغي الحذر من أن يتحول الأمر من كونه دعوة ونصح للناس إلى أن يمازجه شعور المتكاثر بالتباهي بكثرة الكلام، والتفاصح فيه، وتكراره..

أو بالتباهي بكثرة الظهور في وسائل الإعلام المقروءة أو المسموعة أو في شاشات القنوات. وحرص المكاثرين في ذلك في أن يكون أحدهم أكثر حضورا من غيره في مثل هذه الوسائل الإعلامية.

وقد يصل الحال لبعض هؤلاء المتكاثرين إلى أن يخرج في وسائل إعلامية خبيثة تسعى لنشر الرذيلة والصد عن سبيل الله عز وجل، وقد يتنازل هذا المكاثر عن أمور شرعية ليخرج في هذه القناة أو تلك.

ومما له علاقة بهذا النوع من التكاثر.. تكاثر بعض الدعاة بما يكون له من المتابِعين والمشاهدين له من الألوف المؤلفة أو الملايين المملينة، وأن يكون له اسم لامع عندهم.

وعلى كل حال فأمر القلوب علمها عند علام الغيوب «إنما الأعمال بالنيات»، وليس المقصود هنا أن تتهم أحدا في نيته؛ وإنما المقصود الحذر من هذا النوع من التكاثر، الذي قد يدخل منه الشيطان ليفسد الأعمال والقلوب.

ثاني عشر:

التكاثر بالجهاد والغزو والابتلاء في سبيل الله عز وجل

الجهاد في سبل الله عز وجل من أفضل الأعمال والعبادات عند الله عز وجل..

وليس المقام مقام التدليل على ذلك؛ وإنما المقصود هنا الحرص على النية في هذه العبادة العظيمة بأن تكون خالصة لله عز وجل وعلى منهاج النبوة.

ومن علامات الإخلاص في ذلك الحرص على إخفائه وعدم ذكره للناس إلا لمصلحة راجحة، وأما التكاثر فيه وترداد ذِكره وذكر الأماكن والثغور التى تقلب فيها المجاهد، فيُخشى على صاحبه من الرياء والمباهاة بذلك..

وقد كان هذا هو دأب سلفنا الصالح رحمهم الله تعالى؛ فلم يكونوا يتحدثون عن جهادهم، ولا عما واجهوه من الزلازل والابتلاءات فيه، إلا لمصلحة راجحة في ذلك.

عن أبي هريرة رض الله عنه قال: بينما نحن جلوس مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ طلع علينا شاب من الثنية؛ فلما رأيناه بأبصارنا قلنا له: لو أن هذا الشاب جعل شبابه ونشاطه وقوته في سبيل الله عز وجل.

قال: فسمع مقالتَنا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فقال:

»وما سبيل الله إلا من قتل؟ من سعى على والديه ففي سبيل الله، ومن سعى على عياله ففي سبيل الله، ومن سعى على نفسه ليعفها ففي سبيل الله، ومن سعى على التكاثر فهو في سبيل الشيطان»(1).

وعن عبدالله عن عمرو قال: يا رسول الله، أخبرني عن الجهاد والغزو، فقال صلى الله عليه وسلم: «يا عبدالله بن عمرو إن قاتلت صابرا محتسبا بعثك الله صابرا محتسبا، وإن قاتلت مرائيا مكاثرا بعثك الله مرائيا مكاثرا»(2).

قال في عون المعبود:

قال الطيبي: التكاثر أي التباري في الكثرة والتباهي بها. وقال ابن الملك: قوله مكاثرا أي مفاخرا. وقيل: هو أن يقول الرجل لغيره: أنا أكثر منك مالا وعددا، أي غزوت ليقال: إنك أكثر جيشا وأشجع، ان ينادى عليك يوم القيامة إن هذا غزا فخرا ورياء لا محتسبا(3)

مثال من الأولين:

قال ابن قتيبة في عيون الأخبار:

"حاصر مَسلمة حصنا، فندب الناس إلى نقب منه، فما دخله أحد، فجاء رجل من عرَض الجيش فدخله، ففتحه الله عليهم.

فنادى مسلمة: أين صاحب النقب؟ فما جاءه أحد.

فنادى: إني قد أمرت الآذن بإدخاله ساعة يأتي، فعزمت عليه إلا جاء!

فجاء رجل فقال: استأذن لي على الأمير. فقال له: أنت صاحب النقب؟ قال: أنا أخبركم عنه.

فأتى مَسلمة فأخبره عنه، فأذن له.

فقال: إن صاحب النقب يأخذ عليكم ثلاثاً: ألا تُسَوِّدُوا اسمه في صحيفة إلى الخليفة، ولا تأمروا له بشيء، ولا تسألوه: ممن هو؟

قال مَسلمة: فذاك له، قال: أنا هو.

فكان مسلمة لا يصلي بعدها إلا قال: اللهم اجعلني مع صاحب النقب(4)

وذكر ابن الجوزي في صفة الصفوة:

"أن ابن المبارك رحمه الله تعالى كان يضع اللثام على وجهه عند القتال لئلا يعرف.

وقال أحمد: «ما رفع الله ابن المبارك إلا بخبيئة كانت له»(5)"

ثالث عشر: أرذل أنواع التكاثر

التكاثر في فعل المحرم واقتراف الظلم ونشر الفساد

وهذا والعياذ بالله أسوأ أنواع التكاثر وأخطرها وأرذلها، فإذا كان التكاثر محرَّما وممقوتا عند الله عز وجل في الأمور المباحة فكيف بالتكاثر والتباهي بفعل المحرمات ونشر الفساد؟ إنه أشد جرما وإثما وخطرا.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

«كل أمتي معافَى إلا المجاهرين، وإن من الإجهار أن يعمل العبد بالليل عملا ثم يصبح قد ستره ربه، فيقول: يا فلان قد عملت البارحة كذا وكذا، وقد بات يستره ربه.. »(6).

وقد يقول قائل: وهل أحد يكاثر ويباهي بمعاصيه وظلمه وإفساده؟

والجواب: نعم، ولا سيما في واقعنا المعاصر وما ظهر فيه من وسائل الفساد وسهولة الوصول إلى المحرم وكثرة المظالم، حيث صادف هذا نفاقا في القلب، أو ضعفا في الإيمان، وقلةَ خوف من الله عز وجل، ونسياناً للآخرة والحساب، وركونا إلى الدنيا وزينتها الفانية..

فنجم عن ذلك من يجاهر ويكاثر بمعاصيه، دون أدنى حياء من الناس، والعياذ بالله عز وجل من ذلك.

من أمثلة التكاثر في المحرمات:

1- في فعل الفاحشة والمال الحرام

التكاثر بفعل الحرام من فعل الفاحشة أو أكل الربا أو الرشوة والمال الحرام..

حيث تجد هذا المكاثر بدلا من أن يستتر بمعصيته أو يتوب منها، تراه يجاهر بها، ويكاثر فيها، ويرى أن ذلك حنكة وذكاء وشجاعة!!!

2- في الأسفار المحرمة

التكاثر في الأسفار المحرمة إلى ديار الكفر والعهر والفساد؛ فتراه يعدد أسفاره ومغامراته، بل قد يأتي بالصور الفاضحة ليكاثر بها ويفاخر بها عند أصدقائه ومعارفه، والعياذ بالله تعالى.

3- في ظلم العباد

التكاثر بظلم العباد في أعراضهم وأموالهم وأنفسهم، ويَعدّ هذا المكاثر صنيعه هذا حزما وشجاعة..

فكم رأينا من يأكل أموال الناس بالباطل ويكاثر بذلك، ولا سيما أموال الأجراء والعمال والأيتام والوصايا.

وكم رأينا من يكاثر بوظائفه التي يأخذ عليها أجرا دون أن يقدم مقابل ذلك عملا أو حضورا لمقر العمل..

وكم رأينا من يكاثر بانتداباته خارج مقر عمله دون أن يسافر أو يذهب للمكان المنتدب إليه، ولا يحرك ذلك ساكنا في قلبه.

4- في ظلم الدعاة والمجاهدين

التكاثر بظلم الدعاة والمجاهدين، والتباهي بالوشاية بهم إلى الظلمة، الذين يتكاثرون بسجونهم وما فيها من ألوان الأذى والتعذيب النفسي والجسدي.

5- في نشر الرذيلة

تكاثر وسائل الإعلام المقروء منها والمشاهد والمسموع في نشر الرذيلة، والتسابق بين القنوات في نشر الفساد والصد عن سبيل الله عز وجل، والوقوف في وجه المصلحين والدعاة والمجاهدين، والتكاثر في الثلب منهم، واستعداء الظلمة عليهم، والتنافس في بث الشبهات والشهوات في صفوف الأمة.

أما حين نتجاوز المسلمين إلى أعدائهم الكفرة؛ فإنا نجد تنافسهم وتكاثرهم في إنتاج أسلحة الدمار الشامل، والتكاثر بضرب المسلمين بحجة ضرب الإرهاب ونشر السلام ـ زعموا..

ويتصل بهذا نوع آخرمن التكاثر؛ ألا وهو التكاثر والتباهي بالنفاق السياسي، وخداع الناس، والتلبيس عليهم..

ويشترك معهم في هذا النوع من النفاق منافقوا زماننا من أفراد وطوائف(7)..

....

هوامش:

1. شعب الإيمان للبيهقي (9892), مصنف عبد الرزاق.(9578)
2. أبو داود (2521) وضعفه الألباني في ضعيف أبي داود.(434)
3. عون المعبود 139/7.
4. عيون الأخبار 266.
5. صفة الصفوة 115/4.
6. البخاري (6069), (مسلم (2990.(
7. انظر كتاب " هم العدو فاحذرهم" للمؤلف.